النقد الكانطي: من فلسفة الحدود إلى حدود الفلسفة

أة. أسماء خـديـم
جامعة معسكر

إنّ أهم ملمح تتسم به الفلسفة الحديثة هو نزوعها نحو النقد والتشكيك في رواسب العصور السابقة عنها، خاصة العصر الوسـيط باعتبـاره يشـكل جملة من العوائق الـتي لا يمكـن للعقـل أن يتقـدم خطـوة نحـو الأمـام، إلا بإزاحتها عن مسـاره. وإذا مـا توقفنـا مليّـا عنـد مفهـوم النقـد الـذي هـو موضوعنا في هذا العمل، نجد أن حضوره في الفلسفة يمتد إلى ما قبل الفـترة الحديثة؛ حين مارسه أفلاطون بصيغة الـدحض ضـد السوفسـطائية، وقبلـه سقراط عنـدما واجههـم رافضـا أفكـارهم وكـذلك أسـاليبهم الخطابيـة في إيصال الحقيقة. لكن القوة التي تميز بها مع فلاسفة الحداثـة، وقدرتـه علـى تحليل العديد من النظريات وصياغته لأنساق جديدة، يجعلنا نتوقـف عنـده لفهم آلياته خاصة في الصورة التي تمثّل فيهـا مـع فيلسـوف النقـد إيمانويـل كانط (1724-1804) Emmanuel Kant. ما هـي الصـورة الـتي ظهـر بهـا النقد في العصور الحديثة؟ وكيف تحددت ملامحه مـع كـانط باعتبـاره أبـرز القائلين بالمشروع النقدي؟

في مقاربة إجرائية يمكننا وصـف النقـد في العصـر الحـديث بأنـه مـنهج للفحص والتمييز بين مـا هـو حقيقـي ومـا هـو مزيـف في الفكـر، وصـار بالإمكان الحديث عن الفكر النقدي الذي عرّفه لالاند Lalande :" نسـمي فكرًا نقديًا كل ما لا يقبل حقيقة ما دون اسـتنطاقها للبحـث عـن قيمتهـا. سـواء مـن حيـث المضـمون (نقـد داخلـي) أو مـن حيـث الأصـل(نقـد

خارجي)"(Lalande,A.1996:196-197) وقد آمن كانط بمثل هذه المهمة للنقد خاصة ذلك الذي خصّ به نظرية المعرفة.

ساد في الفكر الفلسفي منذ زمن بعيد أن عملية المعرفة تتم بين طرفين اثنين هما الذات والموضوع، إلا أن الخلاف كان بخصوص أيهما يُنتج المعرفة، هل هي نتيجة للتصور وفي هذه الحالة تكون عقلية؟ أم أن الموضوع هو الذي يصيغها ويحدد طبيعتها؟ وقد أجاب كانط عن هذا الإشكال فقال:" إذا كانت جميع معارفنا تبدأ من التجربة، هذا لا يعني أنها تصدر عنها كلية، ذلك لأنه حتى معرفتنا الصادرة عن التجربة هي تركيب مما نتلقاه من انطباعات حسية ومن ما تنتجه سلطتنا المعرفية" (Kant, E.1993:31) بتحليلنا لهذا القول يتضح لنا أن المعرفة عند كانط هي محصلة ذلك التفاعل الذي يتم بين عناصر التجربة وعناصر العقل من ناحية أخرى. وهنا نبادر إلى السؤال عن الكيفية التي يتم بها ذلك التركيب؟ بمعنى، ما هي الآلية التي تحدث بمقتضاها العملية المعرفية؟ يؤمن كانط بأن العقل يتضمن جملة من الأطر القبلية (A priori) والتي بواسطتها يفحص معطيات التجربة، وتلك الأطر تكون إما عبارة عن حدوس أولية كالزمان والمكان، أو تمثلات لمفاهيم قبلية مثل الجوهر والعلة. ويبقى الانشغال قائماً بخصوص إمكانية قابلية معطيات التجربة لمثل تلك الأطر، وهو ما يطمئن له كانط عندما يؤكد على ضرورة خضوع تلك المحسوسات لتمثلات العقل، وهذا ما يجعل مفهوم التعالي (Transcendance) يعني الخضوع الضروري للمعطيات التجريبية للتمثلات القبلية وتطبيقها عليها (Deleuze, J. 1963:22).

يملك كانط يقينا لا يطاله شك في أن تلك التمثلات القبلية ترتبط بالضرورة مع معطيات الحس وتنطبق عليها، وإلا فما يضمن وجود التلاؤم

بينهما؟ وبالنسبة له المعرفة بالأشياء تستدعي الاتفاق بين الفهم والحس(العظم،ص،ج.1974 :34). وفي الحقيقة أن مثل هذا /*لائتلاف* بين المجرد والحسي ليس هيّناً، لذلك اهتدى كانط- من أجل فك هذا التعارض- إلى القول بحدسي الزمان والمكان، وبهما يصل بين الفهم المجرد والحس البحت (العظم، ص، ج. 1974 :34).

لقد وصف كانط نظريته في المعرفة بأنها أشبه بالثورة الكوبرنيكية، فبعد نجاح العلم في وصل مبادئ العقل بمعطيات الحس، صار من الضروري تحقيق هذا في الفلسفة. اتسمت المعرفة الفلسفية سابقاً بالإطلاقية، حيث اعتبر القدماء بوجود حقائق ثابتة ومطلقة والإنسان يدور حولها من أجل الإمساك بها. وما قام به الفيلسوف هو أنه صحّح هذا الاعتقاد؛ فليست المعرفة هي الثابتة بل هو الإنسان أو الشخص الملاحظ، ومثلما وضع كوبرنيك (Copernic) في اعتباره أن الحركة العالمية يمكن ملاحظتها من مركز متحرك أيضاً، وبهذا أصبح العقل الإنساني هو المركز الذي تدور حوله الأفكار والأشياء.

من بين المآخذ التي أخذها كانط على العقلانية التي يصفها غالباً بالدوغمائية، أنها قالت بوجود اتفاق أو بمعنى أصح تطابق بين نظام الأفكار ونظام الأشياء، لذلك استبدله بمبدأ الخضوع الضروري لصالح الذات. وبهذا أصبحت هذه الأخيرة تتضمن إلى جانب ملكة المعرفة صفة التشريع (Deleuze, G. 1963:23). وفي هذا إعلان بأن الإنسان هو الذي يوجه ويتحكم في عملية المعرفة، وهنا يواجهنا سؤال عن ما هي حدود هذه الاستطاعة أو بمعنى أصح هذه الشرعية؟

من المعلوم أن الجهاز المفاهيمي الكانطي يتضمن العديد من المفاهيم، نجد أبرزها – وليس على سبيل الحصر- تلك الثنائية الشـــــــــهيرة

الحساسية والفهم، والتي يقول عنها: "إذا كنا نسمي حساسية تلقي الذهن المعرفة، والقدرة التي يملكها لاستقبال التمثلات بشكل ما، ففي المقابل نسمي الفهم تلك القدرة التي نملكها في صنع التمثلات... "(Kant,E.1993:76-77). من خلال هذا القول يتبين لنا أن الإنسان على علاقة مباشرة ومنفتحة على العالم التجريبي؛ عالم الموضوعات التي من شأنها أن تؤثر فيه، بأن تترك فيه مجموعة من الانطباعات (Les impressions). ويكون الحدس تجريبيًا في هذا المستوى من الحساسية باعتبارها " القدرة على تلقي التمثلات بفضل الصورة التي بواسطتها تتأثر الموضوعات" (Kant, E. 1993:53). في مقاربتنا لهذين النصين يتضح لنا أن حساسيتنا لا تصنع موضوعاتها بذاتها، بل تستمدها من التجربة. لكن كيف يتحول الأمر من مجرد تأثر إلى معرفة منظمة؟

بالعودة إلى النص الأول نجد إلى جانب الحساسية (Sensibilité) هناك أيضاً الفهم (L'entendement). فإذا كانت الحساسية تزوّد المعرفة بالحدوس فإن الفهم يمدّها بالمفاهيم (Ben jaballah, H.1997:104). وتتحدد وظيفة الفهم حسب كانط في " إن أثر الفهم يتمثل في تجميع التركيب العفوي للتخيل في شكل وحدة المفهوم"(Kant, E. 1993 :08). فمهمة الفهم هي تنظيم وتهيئة جملة التأثيرات التي يتلقاها الإنسان عندما تأتي في صورتها الخام. ولكن كيف يتم هذا الترتيب؟

من معطيات هذه العملية لدينا مادة حسية وكذلك كيفية لتلقي تلك المادة، ويرى كانط أنه مع مادة الحدس الحسي توجد صورة للحدس الحسي. وإذا كانت المادة مستمدة من التجربة، فالصورة تكون قبلية (apriori) أي قبل التجربة، والتي تتحدد في صورتي الزمان والمكان. إذا توقفنا مليّاً عند هذين المفهومين سنجد أنهما قد عرفا تحولاً كبيراً، حيث

جعلهما نيوتن مطلقين وثابتين ورغم تأثر كانط بفيزيائه، إلا أنه خالفه في مسألة إطلاقية هذه الثنائية. وقد شاركه هذا الموقف ليبنيز(Leibniz) عندما اعتبر المكان يحقق نظام الأشياء ويربط بعضها بالبعض الآخر. ومع هذا لا يستمر الإتفاق بينهما طويلاً، إذ نظر ليبنيز إلى كل من الزمان والمكان كعلاقات عقلية منطقية، بينما هما عند كانط علاقات معطاة لها علاقة بعالم الأشياء. إنهما يقومان في العقل ويتأثران بمستوى حساسيته للموضوعات، وهما على علاقة بالذات العارفة وهذا ما يؤكده كانط عندما يعتبر أنه لا يمكن الحديث عن المكان إلاّ من وجهة نظر الإنسان (العظم، ص،ج.45:1974). كما أن قبلية المكان لا تعني فطريته بالضرورة أو أسبقيته زمانياً، بل كونه يلازم التجربة الإنسانية ولا يمكن الاستغناء عنه، وقد برهن كانط على قبلية المكان بحجة ميتافيزيقية؛ وهي أن المكان صورة قبلية للإحساس ويندرج تحته ما لا نهاية من الأمكنة، كما أنه ضروري كي تكون المعرفة ممكنة. وحجة أخرى ترانسندنتالية وهي أن قبلية المكان لا تسمح بمعرفة الأشياء في ذاتها بل الظواهر فقط. ومن ناحية أخرى هو ليس شيئاً في ذاته(Noumène)، وإنما هو حدس قبلي يمكنه أن يبرر أحكام الهندسة بأن تكون قبلية وتركيبية في الآن نفسه. إن هذا الوضع سيجعلنا نتحدث عن أحكام قبلية وتركيبية في نفس الوقت تعبر فقط عن الظواهر(Phénomènes) دون سواها، " إن الفهم يحد من الحساسية، وإلاّ تجاوزت مجالها الخاص، ويحذرها من أن تطمح إلى العمل على الأشياء في ذاتها، لكن فقط على الظواهر" (Kant,E.1993:247). وهنا نجد أنفسنا أمام وظيفة أخرى للعقل ليست فقط بناء المعرفة فحسب، بل هي إلى جانب ذلك وضع الحدود أمام قدرته، فكيف يمكن أن يرسم خارطة لنفسه لا يجب أن يتخطى حدودها؟

في مستهل حديثه عن الحساسية يحدد كانط المجال الذي تعمل فيه فيقول: " ...والحساسية بالنسبة لمجالها، وأقصد حقل الظواهر التي هي محددة أيضا بواسطة الفهم بالشكل الذي لا تمتد فيه إلى الأشياء في ذاتها، وإنما بالطريقة التي تظهر لنا الأشياء بها" (Kant, E.1993:226). بناءاً على هذا تكون موضوعات التجربة التي يتناولها الفهم عبارة عن ظواهر، والظاهرة عند كانط لا تعني المظهر(Apparence) بل هي الظهور الخاطف والسريع(Apparition). والفرق بينهما أن الأول يتخطى الزمان والمكان، في حين أن الثاني فيتجسد في كليهما وهذا ما يجعلهما صور لكل ظهور ممكن على اعتبار أنهما الصور القبلية للحدس(Deleuze, G.1963:14).

إنّ ما قام به كانط كان بمثابة رسم خارطة يتعين فيها مجال المعرفة الإنسانية، بحسب الصور القبلية للعقل. فمع الكانطية تشكل مفهوم جديد للنقد يختلف عن المعنى السابق له، فلم يعد يعني الدحض أو إحصاء النقائص والكشف عن الأخطاء والعمل على تصحيحها. إنه غير ذلك كله، باختصار هو عملية معمقة تستهدف بناء ما هو ممكن من المعارف، بمعنى آخر إنه العمل من أجل الكشف عن القول الذي لا أساس له والدلالة على مواطن ضعفه وسطحيته (بن جاء بالله، ح. 1999 :93). ولنا أن نقارب الرؤية الحقيقية لكانط بخصوص النقد في قوله " أنا لا أريد من هذا نقداً للمؤلفات والمناهج، ولكنه نقد لسلطة العقل أو مقدرته بصفة عامة، بالنسبة لكل المعارف التي يمكنه الوصول إليها بمعزل عن التجربة، وبالتالي حل السؤال المتعلق بإمكانية أو عدم إمكانية وجود ميتافيزيقا عامة، وتحديد مصادره ومداه وكذلك حدوده وهذا كله وفق مبادئ" (Kant, E.1993:07).

هكذا إذن أراد كانط من نقده أن يكشف قدرة العقل على إدراك المعارف بمعزل عن التجربة، أي البحث عن إمكانيات العقل الخالص La

raison pure. ذلك العقل الذي لا يدين لا إلى التجربة ولا إلى الحضارة، ومع هذا يعتقد كانط أن هذا العقل حتى لو أخلص لما يملك من قدرات، فإنه لن يسلم من الأسئلة التي تحاصره ولا يجد لها مخرجاً لأنها تتجاوز مقدرته ولا قِبل له بها(Kant,E.1993:05). وهنا تتعارض لديه الإرادة مع الاستطاعة، فهو يريد أن يعرف جميع الحقائق باعتباره طموح ومتطلع، لكنه في مقابل ذلك لا يملك القدرة على تخطي حدوده. إن مثل هذا التعارض هو الذي سبب ما عُرف بأزمة العقل الإنساني، ولحل هذه الأزمة كان "نقد العقل الخالص". وكان السؤال المهم الذي طرحه كانط في مؤلفه هذا: هل يمكن للأنا المتعالي أن يؤسس ميتافيزيقا تمكنه من الخروج من وضعه المأساوي؟ وهل في استطاعته الإجابة عن الأسئلة التي تواجهه؟ومن ناحية أخرى عليه أن يستمد الإجابة من ذاته، فهو لن يطلب المدد من الخارج وإلا فقد حريته واستقلاله.

وعليه ومن أجل تحديد استطاعة العقل يجب التمييز بين ما يعرفه العقل وما يعلمه، أو الفرق بين savoir و connaître. المعرفة هي مجموع القضايا العلمية، تلك القضايا مؤلفة من حدوس قائمة في الزمان والمكان، ومفاهيم يؤسسها الذهن البشري. وهي معرفة في إمكان العقل الإنساني بلوغها(الظواهر)، أما العلم فيتضمن أفكاراً لا حدوس لها كالحقائق الإلهية أو الرؤى والخيالات لا يبلغها إلا المخيّرون(les visionnaires)، وهي أفكار فوق موضوعية (transobjectif) وهي ما يسميها كانط بالنومينات.

إنّ مواجهة العقل وحصر مجاله تبدو مغامرة حقيقية خاصة إذا كان هذا العمل من صميم العقل نفسه ذلك العقل المستقل بذاته، يقدم لنفسه نقداً محايثاً (Immanent) يصفه دولوز (Deleuze) باعتباره يعبر عن العبقرية الكانطية، فهو ليس من العاطفة ولا التجربة، بل من العقل نفسه

(Deleuze,G.1962:104). فلن يبحث العقل عن أخطاء وردت إليه من الخارج، وإنما من داخله كما هو. وعليه سيمثل أمام محكمة العقل نفسه ليعرف حدوده فيلزمها. وهذه الحدود تلازمه ومن طبيعته، لذلك يخلو مفهوم الحد (limite)عند كانط من كل دلالة رقابية ولا يأتيه من أية جهة سلطوية من الخارج (Kant,E.1993:521).

بناءً على هذه المقاربة للفعل النقدي الكانطي، يمكننا التساؤل عن خلفية مثل هذا العمل؟ ويجيب كانط بأن عمله هو عمل المشرّع (Législateur)، فهو لا يختزل عمل العقل في البحث عن طبيعة المعرفة ومناهجها وأسسها فحسب، وإنما يمنحه القدرة على إبداع القيم، وهو عمل يتجاوز الواقع وبلوغ ما يجب أن يكون. مثل هذه المهمة تضع العقل أمام إمكاناته، ومدركاً لحدوده وفي ظل ذلك لن يقع في الأزمة أو الحيرة، وما على الإنسان حينها إلا أن يدرك الإستخدام الجيد لملكة الفهم لديه، مادام يدرك نسبيته وحدود عالم المعرفة لديه.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1–LALANDE, André, (1996). Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 18ème édition, Paris : PUF.

2- KANT, Emmanuel, (1993). Critique de la raison pure, trad. TREMESAYGUES et PACAUD, Paris: PUF.

المراجع:

1 –العظم، صادق جلال، (1974). دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، بيروت، دار العودة.

2 – بن جاء بالله، حمادي، (1999). العلم في الفلسفة، تونس، دار سيراس للنشر.

3- DELEUZE, Gilles, (1963). La philosophie critique de Kant, Paris, PUF.

4-, (1962). Nietzsche et la philosophie, Paris, PUF.

5- BEN JABALLAH, Hammadi, (1997). Le fondement du savoir dans la critique de la raison pure, Tunis: les éditions de la méditerranée.